العلوم الإسلامية وتحديات العولمة

أ.د. سليمان بن صالح الغصن
جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية
بالرياض

المقدمة

الحمد لله والصلاة السلام على رسول الله وعلى آله وصحبه ومن والاه.

فيسعدني أن أكون مشاركاً في الملتقى الدولي الذي تنظمه جامعة عمار ثليجي بالأغواط ويعقد بمركز البحث في العلوم الإسلامية والحضارة بالأغواط تحت عنوان (دور العلوم الإسلامية في تفعيل التكامل المعرفي والاقلاع الحضاري) .

وإني في الوقت الذي أشكر فيه الجامعة على دعوتهم وحفاوتهم، فإني أشيد باختيارهم هذا الموضوع المهم ليكون مجالا لمداخلات المشاركين في هذا الملتقى المبارك .

وقد جعلت مداخلتي هذه بعد المقدمة في تمهيد وثلاثة مباحث وخاتمة على النحو التالي:

- التمهيد: مفهوم العولمة والموقف منها
- المبحث الأول: التكامل داخل منظومة العلوم الإسلامية
- المبحث الثاني: أهمية التزاوج بين العلوم الإسلامية والعلوم الأخرى
- المبحث الثالث: التجديد في العلوم الإسلامية وأثره في مواجهة تحديات العولمة
- الخاتمة

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

التمهيد: مفهوم العولمة والموقف منها:

لا نريد أن نخوض هنا عن تاريخ العولمة ولا عن التفصيل في مجالاتها، وإنما حسبنا أن نشير إلى مفهومها العام، لاسيما ما يتعلق بالجانب الثقافي والموقف منه.

فالعولمة: تلك الظاهرة التي برزت مع الأفكار الأساسية التي يبشر بها النظام العالمي الليبرالي الجديد، وتعني رفع الحواجز الجغرافية والثقافية والاجتماعية وانفتاح الثقافات والحضارات الإنسانية على بعضها، بسبب تأثير الثورة التقنية والتكنولوجية والاتصالات والمعلوماتية، بحيث تزداد كثافة وسرعة وحجم الاتصالات والتعاملات والنشاطات الإنسانية بصورة تؤدي إلى عولمة الواقع البشري.

وجعل البشرية كلها تعيش في ظروف نفسية وثقافية واجتماعية وحضارية توحد مصيرها، وتعولم مشكلاتها[1].

والعولمة في أصلها ترجمة لكلمة Globalization الإنجليزية التي ظهرت أول الأمر في الولايات المتحدة الأمريكية، وهي تفيد معنى تعميم الشيء وتوسيع دائرته ليشمل الكل. وبهذا المعنى يمكن أن نفترض، أن الدعوة إلى العولمة بهذا المعنى إذا صدرت من بلد أو جماعة فإنها تعني تعميم نمط من الأنماط التي تخص ذلك البلد أو تلك الجماعة وجعله يشمل العالم كله. وقد رأى الباحثون أن العولمة في صورتها الراهنة هي الدعوة إلى تنميط العالم بالنمط الغربي، أو بعبارة أدق، هي الدعوة إلى توسيع النموذج الأمريكي وفسح المجال له ليشمل العالم كله. لذا نجد هناك من يقرن بين العولمة وبين "الأمركة"، بصفتها معنية بنشر الطابع الأمريكي وتعميمه[2].

وبتتبع الأحداث يتبين لنا أن "العولمة" في مراحلها الأولى، لا ترادف "الأمركة"، ولا نلمس أنها نشأت أو ظهرت تحت تأثير أمة معينة، أو أنها فُرِضَت وفقاً لمشيئة هذا الزعيم السياسي أو ذاك القائد العسكري، بل ندرك أنها تحققت وتطورت بسبب مجموعة من العوامل السياسية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية والتكنولوجية، التي تنتمي إلى تراث البشرية بأكملها. وعلى

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

أية حال، وبعيداً عن التتبع التاريخي لظاهرة العولمة، فإنها قد أصبحت، بخيرها وشرها، واقعاً ملموساً، نعيشه ونحياه، ويصعب – إن لم يكن مستحيلاً – الابتعاد عنه.

والعولمة ليست خيراً أو شراً دائماً، فلها إيجابياتها في مجالات، وسلبياتها في مجالات أخرى. فالعولمة في صورتها الإيجابية تعني التطور الهائل الذي عرفه العالم في مجال تطوير التكنولوجيا ووسائل الإعلام والاتصال، وما نتج عن ذلك من تقريب المسافات بين أجزاء المعمورة، وإشاعة المعرفة[3]، والتعاون المثمر بين الأمم والشعوب، وتخفيف الحواجز والعوائق التي تعيق الاتصال الحر والمباشر بين الأفراد والهيئات والجماعات.. ومن الطبيعي أن تتفاوت وجهات النظر تجاه المواقف التي ينبغي تبنيها فيما يتعلق بالتعامل مع الغرب أو بالانفتاح على الآخر، وما ينجم عن ذلك من تأثيرات أجنبية تهدد هويتنا الثقافية. وهناك موقفان سائدان، هما:

1. موقف الرفض المطلق وسلاحه الانغلاق الكلي الذي يُوَجَّه إلى الذات.
2. موقف القبول التام للعولمة وما تمارسه من اختراق ثقافي، أي الارتماء في أحضان العولمة والاندماج فيها[4].

وتجدر الإشارة إلى أننا لا نقلل، ولا نهوّن من الخطورة التي يمكن أن تلحقها العولمة الثقافية بهويتنا بوجه خاص، وبالتنوع الثقافي بوجه عام، ولكننا في نفس الوقت، لا نميل إلى المبالغة في ذلك. وحتى لا نُصاب بالجمود، فنتخلف عن مواكبة هذا التطور العلمي المتسارع من حولنا، يجب أن نتقبل الجديد، ونسعى إليه، مع المحافظة على هويتنا الثقافية بعيداً عن التعصب والانغلاق. وإذا كانت ثقافتنا الاسلامية تعاني اليوم من الثنائية والانشطار، ومن الاختراق الثقافي بفعل العولمة، فإن ما يجب أن نفعله هو الانطلاق من الداخل، أي من داخل ثقافتنا الاسلامية نفسها، ذلك لأنه من المؤكد أنه لولا الضعف الداخلي لما استطاع الفعل الخارجي أن يمارس تأثيره بالصورة التي تجعل منه خطراً على الكيان والهوية.

إن حاجتنا إلى تجديد ثقافتنا وإغناء هويتنا والدفاع عن خصوصيتنا ومقاومة الغزو الثقافي والإعلامي الكاسح، لا تقل عن حاجتنا إلى اكتساب الوسائل والأدوات التي لا بد

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

منها لممارسة التحديث ودخول عصر العلم والتقانة كفاعلين مساهمين، ولكننا في حاجة كذلك إلى مقاومة الاختراق وحماية هويتنا الإسلامية وخصوصيتنا الثقافية من الانحلال والتلاشي تحت تأثير موجات الغزو الذي يمارس علينا وعلى العالم أجمع. إن نجاح أي بلد من البلدان في الحفاظ على الهوية والدفاع عن الخصوصية، يتوقف إلى حد بعيد على عمق عملية التحديث الجارية في هذا البلد، وانخراطه الواعي، في عصر العلم والتقانة. وهذا لا يتحقق إلا بالاستغلال الأمثل للإمكانيات اللامحدودة التي توفرها العولمة نفسها، أعني الجوانب الإيجابية منها، وفي مقدمتها العلم والتقانة[5] .فالموقف الصحيح ليس في الانكفاء والهروب من العولمة، ولافي الانبطاح والتلقي لحواملها المتنوعة . بل في الاستفادة والتلقي الواعي والتوظيف الجيد، والقدرة على الفرز والتمحيص لمخرجاتها . والتفاعل مع الواقع الحضاري مع الحفاظ على الهوية والثوابت .

المبحث الأول: التكامل المعرفي داخل منظومة العلوم الإسلامية

تواترت أقوال العلماء والمؤرخين والأدباء في مدح التفنن في العلوم، والإشادة بالشخصيات التي تعددت اهتماماتها وإسهاماتها ومشاركاتها، فعند ترجمتهم لبعض الأشخاص ينعتونه بالمشارك، وأحيانا يفصلون في علومه فيقولون: العلامة الفقيه المحدث الأصولي المفسر .. وهكذا

كما جاءت تأكيدات العلماء بأهمية التخصص وعدم تشتيت الذهن بين العلوم .

ففي التفنن جاء في وصية خالد البرمكي لابنه قال: (يابني خذ من كل علم بحظ، فإنك إن لم تفعل جهلت، وإن جهلت شيئاً من العلم عاديته لما جهلت، وعزيز علي أن تعادي شيئا من العلم)[6] وفي الحث على التخصص ومدحه ما قاله الخليل بن أحمد (إذا أردت أن تكون عالماً فاقصد لفن من العلم، وإذا أردت أن تكون أديباً فخذ من كل شيء أحسنه)[7] وقال أبوعبيد القاسم بن سلام (ماناظرني رجل قط وكان مفنناً في العلوم إلا غلبته، ولاناظرني رجل ذو فن واحد إلا غلبني في علمه ذلك)[8] .

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

والمتأمل في العلوم الشرعية يجد أن بينها تكاملاً بل تلازماً في كثير من المجالات:

فالمفسر للقرآن الكريم لابد أن يكون ملماً بأصول الاعتقاد الصحيح ومسائله حتى لايرجح قولاً بدعياً أو يغتر بمايقرره بعض الفرق الضالة كالرافضة والمعتزلة في معاني بعض الآيات التي يحملونها على معتقداتهم الفاسدة، كما يلزم المفسر كذلك أن يكون عارفاً بالحديث النبوي، قادراً على التمييز بين ماصح منه وما لم يصح، لئلا يستشهد بحديث لم يصح، أويفسر آية بمعنى مخالف لحديث صح فيها، أو يجهل مادل الحديث على نسخه ..، وعلى المفسر كذلك أن يكون ملماً بأصول الفقه وقواعده ليصحح نظره في آيات الأحكام ويعمل ذلك في الاستنباط والجمع والترجيح، حيث يكون قادراً على التفريق بين العام والخاص والمجمل والمبين والمطلق والمقيد والناسخ والمنسوخ وغير ذلك مما يقتضيه النظر في آيات الأحكام . كما أن من الضروري معرفته بعلوم اللغة العربية ليفهم الخطاب وبلاغته وإعجازه ..قال الإمام الشاطبي (فمن أراد تفهمه، فمن جهة لسان العرب يفهم، ولاسبيل إلى تطلب فهمه مت غير هذه الجهة) [9] .

هذه إشارة سريعة للمفسر تظهر حاجته لعلوم الشريعة الأخرى، وتوضح خطورة جهله بها وتأثير ذلك على فهمه وتفسيره.

والحال كذلك في بقية العلوم والتخصصات الشرعية الأخرى .

فالفقيه لابد أن يلم بأصول الفقه حتى يصحح استنباطه، وأن يلم بالحديث وعلومه حتى يصحح استدلاله، وأن يعرف آيات الأحكام، وعلوم القرآن حتى تستقيم تقريراته ..

والمشتغل بالحديث لابد أن يدرك أصول الاستنباط والاستدلال، وعلوم اللغة العربية، ويلم بمذاهب العلماء وتوجيهاتهم للأحاديث حتى لايشذ عنهم ..

والمقصود أن علوم الشريعة تتكامل وتتلازم، وبينها ارتباط وثيق، ومحاولة الفصل بينها بجسور عازلة ينتج بناءً مشوهاً معيباً، ويفرز أفهاماً غريبة، وأقوالاً عجيبة .

ويمكن الجمع بين الدعوة للتخصص، وهذا التكامل التلازمي بأن يقال: إن هناك حداً أدنى من كل فن لابد على طالب العلم والباحث أن يحيط به مع تخصصه المختار، ويزداد هذا الحد

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

من كل فن بحسب المسائل التي يتناولها المتخصص، ويقال مع ذلك بوجوب امتلاكه للقدرة على البحث في المسائل الدقيقة التي يحتاج إليها من التخصصات الأخرى.

وبهذا نكون قد جمعنا بين الخصص والتعمق في فن من الفنون مع البعد عن مواطن الخلل في اشتراط الحد الأدنى من كل فن من علوم الشريعة الأصلية وعلوم الآلة، مع القدرة على البحث في المسائل التي يحتاجها من العلوم الأخرى .

ويبقى أن الجمع بين الفنون والتخصص في أكثر من فن مواهب ربانية وقدرات فردية عند أفراد من الناس على مر التاريخ.

المبحث الثاني: **إهمية التزاوج بين العلوم الإسلامية والعلوم الأخرى**

يلحظ المطلع على التراث الإسلامي أن هناك عدداً من العلماء جمعوا بين العلوم الشرعية وعلوم أخرى، فهناك بعض الفقهاء والمفسرين كتبوا في التاريخ مثل ابن جرير الطبري وابن كثير وابن الجوزي وغيرهم، ومنهم من كانت له اهتمامات أدبية كابن حبان وابن قتيبة وابن عبد البر، ومنهم من من كتب في علم الاجتماع إضافة إلى مشاركته في علوم إخرى كابن خلدون، ومنهم من كتب في قضايا نفسية وتربوية ...

(إن التكامل المعرفي كما كان في العصور الأولى لتأسيس المعرفة الإسلامية، والذي تجسد خصوصا في العقل الموسوعي الشامل لشتى المعارف؛ أي الفقيه المجتهد المبنية ثقة إنتاجه الاجتهادي على شرط الإلمام بعلوم متنوعة، منها ما يتعلق بالوحي ومنها ما يرتبط بالمكلف ونفسيته، ومنها ما يتعلق بالواقع المعيش ومتغيراته الإنسانية، فإنه قد أضحى ضرورة ملحة والحاجة إليه واردة خصوصا في العصر الحاضر المتسم بالتطور السريع والمتشعب بتعدد التخصصات الدقيقة، ومن هنا وجب التأكيد على هذا التكامل ليس من باب استفادة علوم المجال النصي من علوم المجال الكوني والإنساني فحسب، بل من باب إمداد تلك العلوم الأخرى بأدوات ومناهج وكليات المعرفة العلمية في مجال الوحي) [10] .

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

وفي العصر الحديث أدرك عدد من الباحثين والمفكرين إهمية التزاوج بين العلوم الإسلامية والعلوم الأخرى كالعلوم الاجتماعية والنفسية والاقتصادية والتربوية والسياسية وغيرها، وبرزت دعوات الأسلمة لتحقق ثلاثة أمور:

1- بيان سبق الإسلام إلى كثير من القضايا التي توصلت إليها تلك العلوم .

2- تزييف بعض القضايا والرؤى الفاسدة التي اشتملت عليها تلك العلوم.

3- صياغة تلك العلوم برؤية شرعية مستنبطة من الوحي ومن تراث العلماء الاسلاميين.

وتبرز أهمية هذا التزاوج من جهة ضرورة تفعيل العلوم الإسلامية في العلوم الأخرى، وجعلها حاضرة في البناء الحضاري في شتى المجالات .

ومن جهة أخرى فإن عزل العلوم الأخرى عن الإفادة من المنهج الشرعي في تناول هذه القضايا يجعلها عرضة للأهواء والانحرافات، وسبباً في شقاء الإنسان وجشعه وأنانيته.

وقد ظهرت ثمار هذا التزاوج في كتابات كثيرة في شتى العلوم استطاعت أن توظف النصوص الشرعية والعلوم الإسلامية في التأسيس لنظريات، وفي نقد نظريات ومسلمات في علوم مختلفة.

المبحث الثالث: التجديد في العلوم الإسلامية وأثره في مواجهة تحديات العولمة

إذا كان التجديد في السابق مهمها، فإنه في هذا العصر يصبح ضرورياً لاسيما مع العولمة الثقافية، والتواصل الحضاري، وثورة تقنيات التواصل المتنوعة، فإن هذا ممايحتم على علماء الشريعة التجديد في علومها، من العقيدة والفقه والأصول والتفسير وعلوم الحديث وغير ذلك من العلوم التي تحتاج إلى تجديد في عرضها وأمثلتها ونحو ذلك مما لايمس جوهرها وثوابتها وأصولها، (فبالرغم من عطاء علماء الأمة الزاخر والمتميز في هذه العلوم والفنون كلها، بالشكل الذي كشف عن الوجه الحضاري والعلمي للأمة طيلة قرون ممتدة، فإن ظروفا وتحديات أخرى، بعضها داخلي وبعضها خارجي قد حد من هذا الإشعاع والعطاء العلمي في الأمة، وعطل أو كاد حركة التجدد والمواكبة الذاتية في هذه العلوم. الأمر الذي يستدعي بذل جهود إضافية

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

لتحرير هذه العلوم من كثير من الشوائب والخلافات والنزاعات التاريخية التي لحقت بها، وأبعدتها عن روح رسالة القرآن والسنة المتمثلة في الهداية والرحمة للناس .

ولا شك في أن النفس التجديدي في الأمة مشرقا ومغربا لم ينقطع، وأن العلماء المجددين فيها قديما وحديثا وان كانوا قلة، فإن آثارهم وعطاءاتهم ما تزال رافدا من روافد حركة التدين في المجتمع، تتنزل بحسب خصوصيات كل جهة ومرحلة مع حركة تقويم ومراجعة دائمة. وهو ما يقتضي في تقديرنا نهضة على مستوى العلوم والمعرفة المشكلة لثقافة الأمة كذلك من خلال مراجعات تصحيحية في هذا المجال) (11) .

وليس المقصود بالتجديد هنا تغيير الأحكام وتبديل الشرائع كما ينادي به الاتجاه العلماني، وإنما المقصود بالتجديد أمور من أهمها:

1- المبادرة لطرح الحلول والبدائل، وتوضيح حكم الشرع في النوازل التي يفرضها واقع العولمة.

2- تجديد الخطاب والوسائل والأساليب في عرض العلوم الإسلامية بما يتناسب مع ثقافة العولمة ولا يتعارض مع المبادئ والثوابت والمنهج الإسلامي.

3- التصدي لحملات التشويه والاختراق والتقزيم للعلوم الإسلامية.

وقد تكلم العلماء في صفات من يشارك في التجديد، ويمكن تلخيص أهمها بمايلي:

1- صحة عقيدته وسلامة منهجه .

2- أن يكون راسخاً في علوم الشريعة عموماً وفي الجال الذي سيجدد فيه خصوصًا.

3- القطدرة على تصور الواقع وفهم النوازل وفقه النصوص وحسن الاستنباط منها بما يجيب عن استشكالات العصر.

4- القدرة على الاستفادة من والوسائل والأساليب والتقنيات الحديثة في التجديد في عرض العلوم الإسلامية.

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

5- أن يكون لديه الهمة والقدرة على القيام بذلك بحيث يحسن عرض تلك العلوم بما يتلاءهم مع ثقافة العولمة دون المساس بجوهرها ومضموها، وفي المقابل يكون قادراً على الاستفادة من مخرجات العولمة والتصدي لمضارها[12].

الخاتمة

فقد تبين لنا من خلال ما سبق أهمية التفاعل مع مخرجات العولمة، والمبادرة لاحتوائها قبل أن تحتوينا، وأن نحسن توظيفها والاستفادة منها بدل أن ننشغل في ردها ودفعها بخيرها وشرها.

كما ظهر لنا جلياً أهمية تكامل العلوم الإسلامية وتشابكها، وأن محاولة الفصل بينها وبناء الحواجز الفاصلة بين تخصصاتها ينتج لنا جسماً مشوها، وآراءاً غريبة، واجتهادات عجيبة، واتضح بأن المنهج الأصوب في ذلك الاهتمام بالتخصص مع الأخذ بالحد الأدنى من بقية العلوم الأصلية وعلوم الآلة المعينة على صحة الاستدلال والاستنباط.

وتمت الإشارة إلى أهمية التزاوج بين العلوم الشرعية والعلوم التخصصات الأخرى والعلوم الكونية، لما في ذلك من فائدة توجيه هذه العلوم، والاستفادة منها، مع التنبيه على ماتشتمل عليه من نظريات وآراء فاسدة.

وأخيراً تم استعراض قضية التجديد في العلوم الإسلامية وبيان أهمية وضوابطه، والحاجة إليه مع هذا التفاعل الحضاري والثورة المعلوماتية التي سهلت وصول المعلومة بما تحمله من خير وشر وحق وباطل، يجعل المسؤولية عظيمة على العلماء والباحثين في مجال العلوم الإسلامية.

الهوامش:

(1) (الفكر الإسلامي المعاصر والعولمة – سناء كاظم ص 10).

(2) (قضايا في الفكر المعاصر للجابري، ص 137)

(3) (في نقد العولمة لعبد الهادي بو طالب ص37-38)

(4) (العولمة والهوية الثقافية للجابري ص 305- 306)

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com

(5) (انظر العولمة والهوية الثقافية لمحمد الجابري ص 3، وانظر العولمة الثقافية وأثرها على هوية الأمة العربية الإسلامية للدكتور محمد الهواري).

(6) (جامع بيان العلم وفضله لابن عبد البر 1/523).

(7) (جامع بيان العلم وفضله لابن عبد البر رقم (850)

(8) (جامع بيان العلم وفضله لابن عبد البر (رقم 852) . وانظر تكامل المنهج المعرفي في العلوم الشرعية لعمرو الشرقاوي ص10-10.

(9) (الموافقات 2/ 102-103) .

(10) (التكامل المعرفي بين علوم الوحي وعلوم الكون للدكتور الحسان شهيد، مجلة المسلم المعاصر عدد 150)

(11) (في الحاجة إلى استئناف التجديد في العلوم الإسلامية لسعيد شبار، مجلة الجذوة)

(12) (انظر تجديد الدين لسليمان الغصن ص 28)

المنارة للاستشارات
www.manaraa.com